

حول البردة

للاستاذ محمد سيد كيلاني

بقية ما نشر في العدد الماضي

لم سميت بالبردة؟

سبق أن رأينا البوصيري يطلق على قصائده أسماء معينة مثل «ذخر المعاد» و «تفديس الحرم من تدنيس الضرم» و «أم القرى في مدح خير الورى». ومن المؤكد أن هذه الأسماء لا تخفى وراءها أمراً وأنه لم يقصد بها غير ظاهرها. وقد أطلق على قصيدته التي مطلعها:

أمن تذكر جيران بندي سلم مزجت دمها جرى من مقلتي دم
إسم «البردة» وذلك على سبيل الجواز. فهي في نظره قد استوعبت مناقب الرسول وفضائله. وقد شبه البوصيري شعره في أكثر من موضع بالبردة وبالخلة. فقال يخاطب النبي في قصيدته «ذخر المعاد»:

ها حلة بخلال منك قدرت ما في محاسنها للعب تحليل
جاءت محي وتصديق إليك وما حي مشوب ولا التصديق مدخول
ألبستها منك حسنا فازدهت شرفا بها الخواطر منسا والتناويل
لم أنتحلها ولم أغصب معانيها وغير مدحك مقصوب ومنحول
وقال في الحمزية:

هاك من صنعة القريض بردا لك لم تحمك وشيها صنفا
فهذا البيت صريح في أن الرجل كان يرى أن مديحه للرسول يشبه البردة التي حوت جميع الصفات الحميدة التي انصف بها النبي عليه السلام.

وقد ذكر البوصيري كلمة «بردة» في غير المناسبات السابقة ومثال ذلك قوله:

رسحول الله دعرة مستقيل من التغير خاطره هيب
تندر في المشيب وكان عيا ورد شبابه ضاف قشيب

وفي قصيدته «ذخر المعاد» نظر إلى كعب بن زهير وقمته مع الرسول. قال:

وما على قول كعب أن نوازنه فربما وازن الدر الثاقيل
فما تقدم زى أن البوصيري أطلق على قصيدته اسم «البردة» ولم يرد منه سوى المعنى المجازي.

وللبردة اسم آخر وهو «البرءة» وذلك لأن البوصيري في زعمهم يرى بها من علته ولو ألقينا نظرة على هذه القصيدة لما وجدنا الشاعر قد ذكر علته ولا أشار إلى إصابته بمرض معين إشارة قريبة أو بعيدة. ولم يتوسل إلى الله أن يشفيه من مرض أصابه ولا من داء ألم به.

فهذه التسمية مبنية على قصة مرض البوصيري بالفالج ورؤيته للنبي وشفاؤه عقب هذه الرؤية. وقد سبق أن ناقشنا هذه الروايات وفندناها. وكل ما يمكننا أن نقوله هو أن البوصيري ربما نظم هذه القصيدة عقب شفاؤه من الكسر الذي أصابه. وفي هذه الحالة يعوزنا الدليل على ما تقول.

وعلى ذلك فالأقرب إلى العقل والمنطق أن البوصيري رأى قوماً متجهين إلى الحجاز فتذكر رحلته فأنشأ هذه القصيدة وبدأها بقوله: «أمن تذكر جيران بندي سلم... الخ فإذا اقتنعنا بذلك أمكننا أن نقول إن إطلاق اسم «البرءة» على هذه القصيدة هو من وضع الرواة واختراع التفاصيل.

وقدمت كذلك بقصيدة «الشدايد» وذلك لأنها في زعمهم تقرأ لتفريج الشدايد وتيسير كل أمر عسير وهذا وهم باطل واعتقاد فاسد. وما البردة إلا قصيدة كتبها من آفاق القصائد التي مدح بها الرسول. وليت شعري أي شيء في هذه القصيدة يشق من الأمراض ويجلب الريق ويذهب بالشدايد؟ أهو البكاء على جيران بندي سلم وكاظمة وإضم واللبان والعلم؟؟ أم ذكر ارتجاس الإيوان ونحوه النيران ورؤيا الوبدان وسجود الأشجار، وهذا كله من الأساطير والخرافات؟ فضلاً عن ذلك فإن البوصيري ذكر هذه الخواطر في قصائد أخرى كما ذكرها غيره ممن مدحوا الرسول. فلم انفردت أبيات البوصيري في هذا المقام بشفاء المرض وتفريج الشدايد دون غيرها؟

الآية وأن يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصلاة أعني بها اللهم صل أفضل صلاة على أحمد مخلوقك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عدد معلوماتك ، ومداد كلماتك كما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الناقلون .

ولا شك في أن هذا يدل على انحطاط في مستوى التفكير وضعف لا مثيل له في العقول . ووجه العجب في هذا أن المسلمين على اختلاف مذاهبهم وفرقهم قد آمنوا بهذه الخرافات وانفقت كلهم في مشارق الأرض ومغاربها على التصديق والإيمان بما يقال عن هذه القصيدة لا فرق في ذلك بين سني وشيعة . والذي ساعد على هذا هو تفشى الجمالة بين الشعوب الإسلامية بعد أن ابتعدت عن العلم الصحيح وتركت تعاليم المعتزلة جملة واحدة واستسلمت لتدجالين والمشعوذين الذين سيطروا على العقول زمنا طويلا .

ويرجع الفضل في نشر هذه الخرافات بين المسلمين إلى رجال الطرق الصوفية الذين اتخذوا البردة نشيداً يفتنون بها في حفلات الذكر .

منافسها :

ورضوا للبردة من المناقب والفضائل ما لا يقع تحت حصر . فهي تشفى من الرمد والفالج والحصى وغيرها من الأمراض . وما قرأها أحد عند نزول الشدائد إلا فرج الله عنه . وما قرأها على سفينة هال عليها الريح إلا سلمت من الغرق . وما قرأها مسجون إلا خرج سالماً . ومن قرأها في ليلة الجمعة بمد المشاء الأخيرة بطهارة كاملة رأى النبي في منامه . ومن مناقبها أنها تقرا لإطالة العمر ودفع البلاء وجلب المنفعة .

هذه مناقب القصيدة عامة . ثم وضعوا لكل بضعة أبيات منها مناقب خاصة وفوائد معينة . فن قوله :

أمن تذكر جيران بندي سلم

إلى قوله :

وما لقلبك إن قلت استغنى بهم

يقول عبد السلام بن ادريس المراكشي أحد شراح البردة « خاصة هذه الأبيات الثلاثة إذا كانت عندك بهيمة لم تقبل التعلم فاكبتها في زجاجة واعمها بماء الطار واسمها للبهيمة فأبها

أما التمسك من جهاد الصحابة فهذا مذكور في كثير من كتب التاريخ ، ولا يعقل أن الشعر الذي يشير إلى هذا الجهاد يشق مرضاً أو يجلب رزقاً .

لم تحو البردة غير هذه الموضوعات : الغزل والتشبيب بالأماكن الحجازية ، ثم وصف لمناقب الرسول وذكر لكثير من المعجائب والمجزات ، ثم الإشادة بكفاح الصحابة في سبيل الإسلام . ولا يستطيع عاقل أو نصف عاقل أن يدعى أن شعر أئمة في موضوع من هذه الموضوعات يجلب الثنى ويطرد الفقر ويذهب الضيق .

رأسم آخر أطلق على هذه القصيدة وهو الكواكب الدرية في مدح خير البرية .

شروط قراءتها :

ولم يكتبف بعض المسلمين بما اخترعوا من قصص حول هذه القصيدة بل شرعوا يضمنون لقراءتها شروطاً لم توضع مثلها لقراءة القرآن . فن هذه الشروط :

(١) التوضؤ (٢) استقبال القبلة (٣) الدقة في تصحيح ألفاظها وإعرابها (٤) أن يكون القارئ عالماً بيمانها (٥) قراءتها بالنظم لأنها وردت منظومة لا منثورة (٦) حفظها (٧) كون القارئ مأذوناً بقراءتها من أهلها (٨) قراءتها مع الصلاة على النبي عليه السلام . ويلزم أن تكون الصلاة بتلك التي صلى بها البوصيري وهي :

مولاي صل وسلم دائماً أبداً على حبيبك خير الرسل كلهم لا بغيرها وإلا فلا تكون مؤثرة .

وقال قوم آخرون إن من شروط قراءتها أن يصلى من أراد ذلك ركعتين بنية قضاء الحاجة لوجه الله تعالى . وأن يقرأ بعد الصلاة ثلاث مرات باسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . وثلاث مرات خير لنا وشر لأعدائنا . وب يسر ولا تمسر . رب عم بالخير آمين يا رب العالمين . وثلاث مرات يا فتاح . وما النصر إلا من عند الله ثلاث مرات . الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله . والله أكبر والله الحمد . وأن يقرأ الآية الكريمة مرة واحدة مع البسملة الشريفة وهي قوله تعالى : فلقده جاءكم إلى آخر

المسيو رينه باسيه وطبمها في باريس سنة ١٨٩٤ . كما ترجمها إلى اللغة الإيطالية السفيور جابريلي وطبمها في فلورنسه عام ١٩٠١ . وكذلك ترجمت إلى اللغتين الإنجليزية والألمانية .

وأقبل الشعراء عليها فهم من يصدرها ومنهم من يمجزها ومنهم من يخمسها ومنهم من يسبمها ، ومنهم من يتسمها ومنهم من يمشرها . ومنهم من يهيج هججها وينسج على منوالها .

وأوسمها الكتاب شرحاً وتعليقاً ووضموا لها النساب والفضائل والكرامات على نحو ما ذكرنا . وفي دار الكتب المصرية مجموعتان كبيرتان ، الأولى تحت عنوان خميس البردة المسماة بالكواكب اللرية في مدح خير البرية « وهي تسع وستون تخميساً لم يعلم جامعاها .

والثانية عنوانها « الشهب المضية في تخميس الكواكب اللرية » وهي ثلاثون تخميساً لم يعلم جامعاها

ولا تخلو مكتبة في أوروبا من شروح للبردة وتخميس لها .

كيف اشتهرت البردة ؟

أنت تعلم أن البوصيري من أصل مغربي ، وأنه قضى بقية عمره في الاسكندرية مندجماً في سلك أبي العباس المرسي ، مجتهداً في نشر الدعوة للطريقة الشاذلية .

وقد كانت الاسكندرية في ذلك الوقت محط رجال كثير من المغاربة الذين كانوا يفدون عليها ويجدون من سداجة الناس ما يشجعهم على الاشتغال بالنصب والاحتتيال وادعائهم رؤبة الطوالع وعلم القريب والقدرة على جلب الثروة وكشف الخبايا من الكنوز وفير ذلك من ضرور الفس التي استحلوها بها أموال الناس .

وظفق هؤلاء المغاربة بعد زوال الدولة الفاطمية يعملون على الاحتفاظ بمكانتهم الأدبية ومستواهم المادي الذي كانوا عليه أيام الفاطميين . وهكذا رأينا أقطاباً من أصل مغربي يظهرن فجأة وتوضع لهم المناقب وتخترع لهم الكرامات ومن هؤلاء الأقطاب أبو الحسن الشاذلي شقد قال فيه أنصاوه ما لم يقل مثله في أكبر الصحابة والتابعين . ورأى هؤلاء المغاربة أن يكثروا من عدد

نذل وتعلم ما أنت تعلمها بسرعة . وإن كانت لك مملوكة أو مملوك من المعجم ، ولم يتعلم كلام العرب بسرعة فأكتب هذه الأبيات في رق غزال ثم علقه على عضده الأيمن فإنه يتفصح بسرعة بإذن الله تعالى . «

ومن قوله :

ليحسب الصب أن الحب منكتم إلى قوله :

والحب يمترض اللذات بالألم

قال الشيخ عبد السلام المتقدم ذكره : « خاصة هذه الأبيات عجيبة . وذلك أنك إذا كتبت تمم أحداً من النساء فأكتب هذه الأبيات في ورقة انزع وخلها حتى الوقت الذي تكون فيه نائمة ، فضع الورقة على ثديها الأيسر واجعل أذنك عند فمها فإنها تنطق بجميع ما فعله في غيبتك من مليح أو قبيح . هذا مجرب صحيح . وكذلك إذا شككت في أحداً به أخذك شيئاً وأنكره فأكتب هذه الأبيات في جلد ضفدع مدبوغاً وخذ لسان ضفدع وصيره في الجلد وعلقها في عنقه فإن التهم الذي سرقك شيئاً يقربه من ساعته ويدهش ولا يستطيع أن ينكر ولا يخاصم أصلاً ، فأعرف مقدار هذا السر العظيم . «

وهكذا استغل المشعوذون والدجالون قصيدة البردة لا يترار الأموال والاحتيال على بسطاء الأحلام وضغفاء العقول . واتخذوا منها عامماً وأحجية وشرعوا يوهمون السلاح بفوائد هذه النظم ومنافسها ويتقاضون على ذلك ما يعلو جيوبهم . ومن الذي يستطيع أن يأتي بجلد ضفدع مدبوغ ولسان ضفدع ورق غزال وماء زعفران غير أولئك الذين خصصوا أنفسهم في مزاولة الاحتيال والنصب ؟

شهرتها .

وقد ترتب على ما تقدم أن سار ذكر البردة في الآفاق شرقاً وغرباً ، وحفظها الخاص والعام ، وتنفى بها الناس في الموالد والأذكارة ، وأكثروا من تلاوتها في شتى المناسبات . وقد ترجمت إلى بعض اللغات الشرقية كالتركية والفارسية والأردية . كما ترجمت إلى بعض اللغات الأوروبية . فترجمها إلى اللغة الفرنسية

وقد أجاد البوصيري إجابة تامة في قوله :
 كذاك بالعلم في الأمتى معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتيم
 في حين أن شوقي لم يجد في قوله :
 ذكرت باليتيم في القرآن نكزرة وقيمة اللؤلؤ المكزون في اليتيم
 ولم يلحق بالبوصيري حين قال :
 يا أيها الأمتى حسبك رتبة في العلم أن دانت بك العلماء
 * * *

ولم ينتفع الشعراء بمخاني البوصيري في هذه القصيدة فقط ،
 بل انتفعوا بأسلوبه وأعاروا على طريقته ونقلوا كثير من عباراته .
 ولعل هذا يرجع الى مظاهر القداسة التي أحيطت به هذه القصيدة
 وإلى الإجابة التامة التي وفق إليها البوصيري في البردة . وما
 أسدق أحمد شوقي حين يقوله :
 المادحون وأرباب الهوى تبع لصاحب البردة الفيجاه ذي القدم
 مديحه فيك حب خالص وهوى وصادق الحب يعلى صادق الكلام
 الله يشهد أني لا أعارضه من ذا يمرض صوب المارض المرم
 وإنما أنا بعض الغابطين ومن يغبط وليك لا يذم ولا يلم
 محمد سير كبري

اعلان مناقصة

تقبل عطاءات بوزارة الشؤون الاجتماعية
 (مشتريات) لغاية الساعة ١٢ من
 ظهر يوم الثلاثاء الموافق ١٢
 سبتمبر عن توريد الأثاث والأدوات
 الصاج اللازمة للوزارة عام ١٩٥٠ -
 ١٩٥١ ويمكن الحصول على الشروط
 مقابل ٢٥٠ مليا يضاف إليه
 مبلغ ٣٠ مليا أجرة البريد
 وتقدم الطلبات على ورقة تمفة
 فئة الثلاثين مليا ٥٥٣٥

الأقطاب طمعا في الثروة وجلبا للكسب فأنفوا حول أبي العباس
 الرسي مثل ما أنهوا حول استاذة الشاذلي، ثم أنفوا حول البوصيري
 المغربي الأصل مناقب كثيرة ولقبوه بالإمام وأقاموا له ضربا .
 وهكذا أخذت أضرحة الأقطاب المغاربة تنكسر يوما بعد يوم
 فرأينا إبراهيم الدسوقي في دسوق ، وأحمد البدوي في طنطا ،
 وعبد الرحيم الفتاني في قنا ، ويوسف أبا الحجاج في الأقصر . وأخذ
 المصريون يحملون إليها التذود ويقدمون لها القرابين ويتوسلون
 بها في قضاء الحاجات . وبهذا افتنى القاعون على هذه الأضرحة
 وكاهن من أصل مغربي ، واستحلوا أموال الناس بأكلونها بالباطل
 ولم يتورعوا عن استغلال الطرق المزرية وارتكاب المخازي والقبايح
 مع ضحاياهم ليستولوا بذلك على الأموال الطائلة . وأناهم على
 ذلك جهل العامة وعدم وجود حكومات تضرب على أيديهم .

واخذ المغاربة من « البردة » مجالاً لنشاطهم ، ووضعوا لها
 المناقب والفضائل ، واحتكروا نسخها وتأجيرها وبيعها وشرحها
 وتفسيرها ، كما كتبوا في خصائص كل بيت من أبياتها .
 وحفظها أتباع الطريقة الشاذلية وصاروا ينشدونها في الأذكار

فهرسها الأوربية :

لا جدال في أن البردة من أروع القصائد التي قيلت في مدح
 الرسول . فهي قوية في أسلوبها غنية بالحكم الخالدة والتشبيهات
 الرائعة والاستعارات اللطيفة والمعاني التي هجز الشعراء عن الإتيان
 بعثها والتي تضمنت للبوصيري ذبوع الاسم وخلود الذكر . وقد
 اقتبس الشعراء الذين جاءوا بعده كثيرا من المعاني الواردة في
 البردة . ومثال ذلك قوله :

فإن لي ذمة منه بتسميتي عمدا وهو أوفى الخلق بالدم
 فأخذ هذا المعنى شعراء كثيرون منهم أحمد شوقي حيث يقول :
 يا أحمد الخبير لي جاء بتسميتي وكيف لا يتسامى بالرسول سمى
 وقال :

لا طيب يمدل ترابضه أعظمه طوبى لمنشق منه وملثم
 فتداوله كثيرون ومن ذلك قول أحدهم :
 يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطلب من طيبين القاع والأكم